المتواضعة، كتاب «مدينة وشاعر، حيفا والبحيري» بالاضافة إلى ما قدمه لمؤلفه من عون في تحضير مواد الكتاب. ثم ها هو ذا يعد جزءا جديدا من ثروته التي يختزنها في ديوان بعنوان «لفلسطين أغني». ويظل لديه من المجموعات الشعرية المنظمة عدة مجموعات نتمنى ألا يطول حجزها عن النور.

جمع الشاعر، في ديوانيه الأخيرين: «حيفا في سواد العيون» و«لفلسطين أغني»، قصائد تتفاوت في قدمها، فيمتد تاريخ نظم قصائد الديوان الأول ما بين سنتي ١٩٤٢ و١٩٥٥، وقصائد الديوان الثاني ما بين سنتي ١٩٤٥ و١٩٧٦، وكل قصائده سابقة على ١٩٦٠ فيما عدا أربع قصائد «يا أمتي لن تقهري، ورايات الفدا»، نظمهما في اليومين التاليين لحرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، و «حيفا»، نظمها سنة ١٩٧٣، و «منائر الهدى» في سنة ١٩٧٦. ولا يعني هذا أنه لم ينظم في هذه الفترة الطويلة سوى هذه القصائد، فحسن البحيري غزير الانتاج، ولكنه اختار هذه القصائد دون سواها ليثبتها في هذا الديوان الأخير.

ومهما يكن، فان دارس هذين الديوانين، يطل من خلالهما على حسن البحيري في الأربعينات والخمسينات. فيما عدا القصائد الأربع التي أشرت إليها. ولا شك أن هذا أمر مؤسف حقا، الا تتاح لنا فرصة قراءة الشاعر إلا بعد أكثر من ثلاثين سنة من نظم قصائده. ومن هنا، فقد ارتأيت أن أجمع الديوانين معا، وأن أرتب قصائدهما حسب تأريخها الذي أشار هو إليه في محاولة للتعرف على الشاعر من خلال تطوره الفكري والفني. وقبل ذلك، أود أن أشير إلى ملاحظة لافتة للنظر، فهو، في ديوانه «حيفا في سواد العيون»، حكم نفسه لمسألة شكلية خارجية تماما، فلم يضم في الديوان، كما يقول «غير ما خطه الخطاط المرحوم (بدوي الديراني) من قصائدي»[٣٧]. وذلك فرض عليه أن يثبت في الديوان قصيدة «أفراح المولد»[٣٨]، مع أنها كانت قد نشرت في ديوانه الثاني «أفراح الربيع»، لالشيء إلا لأن القصيدة كتبت بخط ذلك الخطاط. وربما كان اقتصار الديوان على ما خطه بدوي الديراني هو السبب الذي جعل الشاعر لا يدخل فيه قصيدته «حيفا» المنظومة في شهر ربيع الأول ١٣٩٣ هـ، نيسان (ابريل) ١٩٧٣ م، الشهر الذي طبع فيه الديوان، مع أن القصيدة أدخل في موضوع الديوان... وكان من المستحسن أن تثبت فيه. ومثل ذلك أيضا، المقطوعة القصيرة التي تحمل عنوان «غابة»[٣٩] في وصف إحدى غابات جبل الكرمل في حيفا، وهي منظومة سنة ١٩٤٥. وكذلك يمكن أن يقال في مقطوعته «السهم والألم» في تشوقه ولوعته إلى مدينته «حيفا». ولكم كان جميلا لو أن هذا الديوان ضم كل ما نظمه الشاعر في «حيفا»، خصوصا إذا كان لديه قصائد أخرى فيها. ولربما كان ادعى الى التأثير لو أن الديوان اقتصر على قصائده في مدينته اذا كان لديه فيها مجموعة من القصائد تشكل ديوانا بحجم معقول.

ومهما يكن، فانه من المفيد ان الشاعر يؤرخ لمعظم قصائد الديوانين، ولذلك، فانه يساعد الدارس على تصنيف هذه القصائد حسب التسلسل الزمني الذي قد يعين على اظهار مدى تطور الشاعر عبر هذه السنوات الطوال. وما دمنا نقرأ للشاعر عددا لا يستهان به من قصائد الديوانين منظومة قبل حلول نكبة ١٩٤٨، فإنه من المتوقع ان نراه في هذه القصائد على حاله التي رأيناه عليها في دواوينه الثلاثة التي ظهرت في الفترة نفسها حتى سنة ١٩٤٦، وان جاءت قراءتنا له من خلالها متأخرة أكثر من ثلث قرن.